المقتطف

هل الانسان حرّ الارادة

وهي محاورة بين الاضطرار والاختيار
تابع ما قبله

ويتضح لك كلامي هذا بمثل ما لوف وهو لنفرض ان زيدًا اراد زيارة عمرو فيبدأ بالحركة ويخرج من بيته بارادته وقصده فتكون حركته هذه ارادية لصدورها عن ارادته ثم يخطر له فكر فينشغل عقله به وتلهى ارادته عن حركات رجليه بتوجه انتباهه الى ما يجري في عقله من الافكار. فلا تقف الرجلان حينئذٍ بل تستمران على المشي اذ تستدعي خطوة الرجل الواحدة خطوة الرجل الاخرى بلا علم من زيد ولا ارادة. فتكون حركة رجليه هذه آلية صادرة من فعل منعكس بين عصبة وعصبة ولا تفرق عن حركة الافعى بعد قطع راسها. غير انها وان كانت آلية فهي لا تجري على غير هدًى لانه اذا اعترض زيدًا حائط في طريقه حاد عنه واذا قابلته مركبة انحرف عنها لان عينيه تهديانه في سيره مع انشغال ارادته عن مراقبة حركاته. فلا يزال يمشي كذلك وعيناه ترشدان خطواته وارادته لاهية عنها حتى تطول عليه الطريق وتثقل قوته العصبية من طول العمل. فتحوّل انتباهه اذ ذاك الى مشيه وتشرع الارادة تبعث الاوامر وتدبر حركات الرجلين لا راسًا بل بواسطة المراكز التي كانت تحركها تحريكًا آليًا[1] فيقدم زيد بارادته رجلاً فرجلاً حتى تفرغ منه قوته وبعينه التعب عن السير فتدعو الارادة الرجلين اذ ذاك ولا مجيب وتامر ولا مطيع

فبان لك من كلامي الفرق بين افعال الارادة وافعال غيرها في المشي وعلى هذا النمط تصير حركات المشعوذ والعازف بالمعازف والرقاص والبهلوان والقاريء والكاتب وغيرهم آلية بعد ان يعوّدوها ويمرنوا عليها بارادتهم ولولا حبي بالاختصار لاسبغت لك ذيل الكلام عليها كلها ولكن حسبك ما ذكرت عن المشي فقس عليه. واعلم ان نسبة الارادة الى الجسد نسبة الفارس الى فرسه فالارادة تخضع الاعضاء لامرها كما يذلّل الفارس الفرس. وتسوقها فتتحرّك بقوتها كما يسوق الفارس فرسه بسوطه ومهازه فتجري بقوتها. وتعجز عن تحريكها اذا فرغت قوتها كما يعجز الفارس عن تنشية فرسه اذا خارت

(١) هذا مذهب الدكتور كرپنتر

قواها ولو ألمّها ضربًا وألمها وخزًا. وتلهو عنها وعن حركاتها وتبقى هي على عملها كما ان الفارس قد يلهى بالهواجس والاحلام وينسى فرسه وما حوله وتبقى فرسه سائرة به حتى توصله الى مقرّه. وتعلّم الارادة الاعضاء ما تقصدهُ من الاعمال فتجري الاعضاء طوع امرها تحت نظارة المراكز العصبية في الدماغ كما ان الفارس يعلّم فرسه الجري في دوائر المسابقة في الميدان فتجري طوع امره. وقد تجمح الاعضاء على الارادة فتشتجّ وتضطرب ولا تستطيع الارادة كبحها كما ان الفرس قد تنزع من فمها شكيم اللجام وتجمح بالفارس فلا يستطيع كبحها

رابعًا. وحكم الارادة على افكار الانسان مثل حكمها على الافعال فاذا فاضت النفس بالافكار توالت متسلسلة تسلسل الماء ولم يشعر صاحبها بقوة تبذل منهُ عليها كما لا يشعر بقوّة تبذل منهُ على التنفّس اذ لا يلزم لذلك قوة ارادية. واما اذا اعاق مجرى الفكر عائقٌ كما اذا اعوز الناثر لفظةٌ او الناظم قافيةٌ او الهندسي حلُّ مسئلةٍ فالارادة تهبُّ في الحال فتبعث قوّة الذاكرة او قوة الاستدلال او غيرها من قوى العقل حسب الاقتضاء في طلب ذلك المفقود او حل هذا المشكل. وكذلك اذا اجتُذب الانتباه بداعٍ من دواعي الحس كما اذا كان انسان يحلُّ مسئلةً جبرية ووقعت عينهُ على منظرٍ بهيج او سمعت اذنهُ كلامًا له موقع في نفسهِ وتحوّل انتباههُ من حل المسئلة الى داعي الحس هذا فان ارادتهُ قادرة على تحويلهِ عن داعي الحس وردّهِ الى حل المسئلة. وذلك لا يقدر عليهِ الّا الانسان فان الحيوان الابكم ولو شارك الانسان في كونهِ حرًّا في تحريك اعضائهِ فهو لا يستطيع تحويل انتباههِ[1] بل ان سلطان ارادتهِ متعطل عمّا له من قوى العقل فتجري افكارهُ كل مجرًى حسب ما يؤثّر في النفس من مؤثّرات الحواس او حسب ما يبدو فيها من صور الحافظة بناموس ائتلاف الافكار. ويشاهد ذلك جليًّا في الانسان في الاحلام واختلاطها[2] اذ يرتفع سلطان الارادة عن قوى العقل فلا تستغرب غريبًا ولا تحسب شيئًا عجيبًا. فشتّان ما بين الانسان القابضة ارادتهُ على زمام افكارهِ وبين من تعطّل ارادتهُ فتنطلق افكارهُ على هواها فان ذا الارادة يحوّل افكارهُ عن داعٍ الى التفكّر في داعٍ آخر بحيث يُضعف الداعي الاوّل ويقوّي الداعي الثاني فهو مالك نفسهِ متسلّطٌ على الدواعي فاعل افعالهُ بارادتهِ واختيارهِ ولذلك يطالب عليها[3]. واما عديم الارادة كالحيوان الابكم فلا يستطيع تحويل افكارهِ بل انها تجري حسبما تسوقها الدواعي فالدواعي المسلّطة وهو العبد وهي العامل وهو الآلة فلا يفعل افعالهُ باختيارهِ ولذلك لا يطالب عليها. هذا وانت تدّعي ان بني البشر كلهم عبيدٌ للمؤثرات الخارجية كالضابط الفرنسوي الذي شُدِخ راسهُ فكان يصيبهُ عارض يجعلهُ عبدًا يد مكلّمهِ فاذا اراد تحويلهُ حوّل عليهِ بالقول فخاف واذا

(١) و (٢) هذا راي الفيلسوف الدكتور كربنتر وغيره من الفلاسفة

(٣) قد استوفينا الكلام على ذلك في مقالة الاحلام المدرجة في السنة الثالثة

اراد تذليله احتالَ فذلَّ الى آخر ما ذكرت . وكالرجل الذي يصلي بشغفٍ ويقضي ما عليهِ من فروض السجود ويقرع صدرهُ ويكسر طَرْفهُ وفكرهُ لاهٍ عن الصلاة واتباعها متحوِّلٌ الى غير فروضهِ. فاين دعواك من الحق . ان اللذين ذكرتهما انما يثبتان ما قلتهُ في كلامي عن المشي والكتابة وانكُم من ان الانسان اذا مرن على عملٍ فربما تمَّ ذلك العمل بالمراكز العصبية الواطئة في دماغهِ وارادتهُ لاهية وافكارهُ منشغلة ولكنهما لا يثبتان ان الناس لا يعلمون اعمالهم البتة باراداتهم . فانهُ اذا تعطَّل سلطان الارادة فربما بقي دولاب الفكر والعمل دائرًا تحت نظارة المراكز الناتئة عن الارادة فيكون الانسان حينئذٍ آلة بيد العوامل كما ذكرتَ وكما يظهر من امثلة كثيرة اضرب عن ايرادها صفحًا[1] . على ان هذه ليست حالة البشر المعتادة كما لا يخفى عليك ولا على احدٍ بل المعتاد ان الارادة تتسلَّط على افعالهم واقوالهم وافكارهم ولا يحتاج ذلك الى زيادة ايضاح

خامسًا . لو صحَّ قولك في الارادة لانحلَّت عقدها وانجلت غوامضها على اسهل سبيل وعُرِفَت نوايا الناس وافعالهم قبل وقوعها من مجرَّد معرفة الدواعي التي تدعوهم الى عقد النية وفعل الفعل فانهُ لو كانت الارادة شهوةً تولَّد في النفس من فعل فاعل خارجي فيها كما تزعم لم يلزم لنا الاَّ معرفة ذلك الفاعل حتى نعرف الارادة الحاصلة من تاثيرهِ في الدماغ ولم تكن معرفة ذلك اعسر علينا من معرفة شرائع الكواكب واسباب ظواهر الجوّ. ولكن بديهات ان تسطر افعال الارادة او تحصر دواعيها كما تسطر حركات الكواكب وتحصر علل الرياح فان الارادة حرَّة مختارة في افعالها والكواكب والرياح مقيَّدة بشرائع الطبيعة مستعبدة لنظام العالم . فاعلم اولاً ان الارادة غير الشهوة خلافًا لما تدَّعي فان الانسان قد يشتهي عكس ما يريد ويريد عكس ما يشتهي فاذا كلفني صديق ان اقنع لهُ رجلاً بامرٍ ولم يكن في وسعي رفض ما كلَّفني ولا في مشتهاي اقناع الرجل بذلك الامر فاني اكلهُ وانا اشتهي انهُ لا يقنع بكلامي[2] فاكون بذلك قد اردت عكس ما اشتهيت . واذا كنت جائعًا واصبت طعامًا ليس لي اشتهيهِ ولكني لا اريد اكلهُ[3] فاكون بذلك قد اشتهيت عكس ما اردت. واعلم ثانيًا ان الدواعي التي تدعو الانسان الى العمل ليست هي الحاكمة على الارادة بل الارادة حرَّة في اجتنابها وقادرة على توجيه الانتباه الى دواعٍ غيرها فتصيِّرها اقوى من سائر الدواعي وتسلك بموجبها . وبهذا الاعتبار تمتاز ارادة الانسان عن سائر الحيوان فيطالب الانسان بافكارهِ واقوالهِ وافعالهِ ولا يطالب الحيوان. لانهُ لمَّا كان الانسان قادرًا على اجتناب الدواعي وعلى تغيير قوتها بنسبة بعضها الى بعضٍ فهو يلام على السلوك بموجب القبح منها ويمدح على السلوك بموجب الحسن وهاك مثالاً على ما تقدَّم لزيادة الايضاح :

(١) الهمنيوتسم والهيبنوتسم والاحلام والتكلم في النوم والجنون نيو والغيبة وغيرها مما يضاهيها يذهب جمهور كبير من العلماء والفلاسفة انها تعطل بتعطل الارادة وبقاء الافكار او الحركات او كليهما جارية مجراها المعتاد

(٢) قدم هذا المثل الفيلسوف لك (٣) وقدم هذا المثل الفيلسوف ريد

اذا عرض عليك زيدٌ خمس مئة درهم على ان تعينهُ في تاليف كتابٍ له فالمبلغ هو الداعي والقوة التي تحملك على قبول مساعدتهِ او رفضها هي الارادة. فاذا لم يكن داعٍ آخر من نوعٍ آخر لم يكن في المسئلة اختيار اذ لا اختيار بين اقل من شيئين. واذا كان داعٍ آخر من نفس نوع الداعي الاوّل كما لو عرض عليك عمرٌو الف درهم على ان تعينهُ تلك الاعانة عينها ولم يكن له داعٍ آخر البتة غير ما لزيد ولا لك داعٍ آخر البتة لتفضيل زيدٍ عليهِ لم يكن اختيار ايضاً[1]. واما اذا اختلف الداعيان نوعاً كما لو قال لك عمرٌو اعطيك الف درهم على ان تعينني وتوافقني على الكذب فيكون للاختيار مندوحة بينهما. فالداعيان هنا خمس مئة درهم مع الصدق والف درهم مع الموافقة على الكذب وانت تقول ان اقواهما يحملك على ان تعمل بمقتضاهُ بقوة حكمهِ عليك وتاثيرهِ فيك وانك لا قدرة لك على المخالفة ولا حريّة لك على اختيار داعٍ منهما. وانا ايضاً اقول انك تعمل بحسب اقواهما ولكن بارادتك واختيارك لانهُ ايّ هو اقوى الداعيين أليس الذي تحوّل اليهِ افكارك بارادتك وتسكب عليهِ نفسك بقدرتك. فانك قادرٌ ان تحوّل انتباهك وتصرف افكارك عن داعي الف الدرهم مع الكذب الى داعي خمس مئة الدرهم مع الصدق وتفكّر في ان هذا هو الواجب وان الصدق امرٌ محبوبٌ لذاتهِ واجب ان يتّبع والكذب امرٌ مكروهٌ لذاتهِ واجب ان يجتنب ولا تزال ارادتك تقرّب لك النتائج وتبعدها حتى يصير الداعي الثاني عندك اقوى الاثنين ولو كان اولاً اضعفهما فتختارهُ وتسلك بحسبهِ وتُذَمّ او تُمدَح عليهِ لانك صرت مطالباً بهِ

واذا قلتَ انك انما تحوّل انتباهك وتحصرهُ في احد الداعيين بدون الثاني اجابةً لداعٍ آخر اقوى من الاولين هو طبعك الذي فُطرت عليهِ او عوائدك التي تعوّدتها او المشارب التي تربيت عليها او غير ذلك من الدواعي قلتُ لا يصحّ ذلك لان كلاً يعلم من نفسهِ علم اليقين انهُ لا يستطيع تحويل انتباههِ وحصر فكرهِ في احد الداعيين الاّ باجهاد الارادة وبذل قوتها وانهُ حالما يخل وثاق الارادة عن الانتباه تعود الافكار تجري في مجاريها كما يعود الماء الى حالهِ بعد حصرهِ وضغطهِ. فلو صحّ ما تقول لكان يقتضي ان لا تكلّف له ادنى جهد اذ هو من نفس الطبع. هذا فضلاً عن ان مدح الناس كلهم لبعض النوايا والافعال وذمهم لغيرها بالطبع لا بالتطبّع كما انت عالم مبيّان على كون الانسان مطالباً باعمالهِ ولا يطالب احد باعمالهِ ما لم يكن حرّاً فيها غير مجبور عليها. على انك خلافاً لزعماء مذهبك[2] تقول انهُ لا فضل لمن يفعل الفضيلة ولا لوم على من يرتكب الرذيلة وتباهي باقوال الذين جاهروا بقبائح رايك من انصارك فهموا في ضلالة فلسفتهم الفاسدة وفاهوا بتحليل اعظم المحرّمات زاعمين (ويش الزعم)

(١) الاستاذ كلدرّ وُد في مقالهِ عن ارادة الانسان والاستاذ هكوك في فلسفتهِ العقلية

(٢) ان زعماء فلاسفة الماديين لا يحللون اليوم قولاً ولا فعلاً المحرّمات الادبية المتفق عليها ولكنهم يحاولون ان يوفقوا فلسفتهم عليها. ومن يزعم ان النفس ليس لها قوى ادبية كما لها قوى عقلية فقلّ ان يجد له نصيراً فيهما

انهم يقولون الصدق ويستشهدون على مذبح الحق. قال بعضهم[1] في القرن الغابر "لا حرّية للانسان فانهُ معمول الدواعي الّا انا قد اعتدنا ذم الناس ومدحهم حتى صرنا نحسبهم احرارًا. ألا ان ذلك عين الغرور فانهُ لمّا لم يكن للانسان حرية لم يكن يستحق مدحًا ولا ذمًّا على افعالهِ ولم يكن له فضل على الفضيلة ولم يستوجب ملامًا على الرذيلة ولم يستحقّ العقاب ولا الثواب على عملٍ بعلة ..... فان فاعل الخير حسن البخت لا فضيل ....وختام القول كلهِ ان بداءة الحكمة لوم الناس على لا شيء والندامة على لا شيء"

زمان وجود الانسان

قسمنا ادلة العلماء على زمان وجود الانسان الى ثلثة اقسام وذكرنا ادلة القسم الاول في الجزء التاسع والآن نذكر ادلة القسم الثاني

من ادلّة القسم الثاني وجود آثار الانسان في الخث[2] الدانيمركي. وقد ظهر من البحث في هذا الخث ان الأرز الاسكتي كان ينمو في الاعصر الغابرة في بلاد الدانيمرك ثم انقرض وخلفهُ السندبان ثم انقرض وخلفهُ شجر الفاغُس الباقي الى الآن ولم تزل آثار هذه الاشجار في الخث على ترتيبها المذكور. وقد وجد الشهير ستينسترب ظررًا من صنع الانسان تحت جذع ارزة منها فاستدلّ العلماء من ذلك على قدمية الانسان في بلاد الدانيمرك وظاهر استدلالهم انهُ قاطع وذلك لان كلًّا من تكوّن الخث وتوالي هذه الاشجار يقتضي قرونًا عديدةً. قال السر تشارلس ليَل ما مفادهُ ان شجر الفاغُس المشار اليهِ كان مغطيًا بلاد الدانيمرك في عصر الرومانيين ومن ثمّ الى الآن لم يحدث فيهِ تغيّر كما يستدل من التاريخ وكان السندبان مغطيًا لها في العصر التاريخي والارز في العصر الحجري كما يستدل من الآثار. وكان الانسان يسكنها قبل ذلك كما تبيّن من آثارهِ فكم قد كرّ عليهِ من القرون حتى خلف السندبانُ الأرزَ والفاغُسُ السندبانَ وتكوّن الخث فوق آثارها. فقد قدّر ستينسترب وغيرهُ من الثقات تلك القرون بأربعين قرنًا ولكنها لا تبعد ان تكون اربعة اضعاف ذلك[3]. الّا ان ليَل لم يجزم بانها كثيرة بهذا المقدار كما فعل بعض الغلاة والّا لكثرت شواهد كثيرة في بلادهِ وغيرها لان في بلاد الانكليز وفرنسا غياطًا كثيرة من الخث وقد وُجد في قعورها نقود رومانية دلالةً على انها ليست اقدم من عصر يوليوس قيصر[4]. هذا فضلًا عن ان الجيولوجيين مختلفون في مقدار ما ينموهُ الخث في القرن فان مستر برودي استدلّ بادلّة قاطعة ان الخث كان ينمو في اسكوتلاندا ستة قراريط كل قرن ومسيوده برتس قدّر

(١) الفيلسوف دِدَرُو الفرنساوي في بعض رسائلهِ (٢) نريد بالخث مواد نباتية رسبت في بعض المستنقعات وصار منها مادة شبيهة بالفحم المعدني اذا جففت امكن ايقادها مثلهُ وهي بالانكليزية پيت

(٣) قِدَم الانسان لليَل (٤) انظر مبادئ الجيولوجية للول